الوجود العربي في كانم في السودان الأوسط حتى القرن ٧هـ/١٣م

صباح إبراهيم الشيخلي*

* حصلت على الدكتوراه في تاريخ المغرب وافريقيا الوسيط من جامعة مانشستر بلندن عام ١٩٨١م.
تعمل أستاذة مساعدة في قسم التاريخ ـ كلية الآداب، جامعة بغداد.

الملخص

إن صلة العرب بكانم قوية، فلقد حاول العرب المسلمون بعد وصولهم إلى شمال افريقيا في القرن ١ هـ / ٧م مد نشاطاتهم العسكرية إلى الأقسام الجنوبية لصحراء فزان الواقعة إلى الشمال من كانم، تلك الصحراء التي تربط الشمال الإفريقي بكانم، بعدها فتحت لهم الطريق للوصول بنشاطاتهم السياسية والتجارية والدينية إلى هاتين المنطقتين.

لقد كان الوجود العربي في منطقة كانم في البداية قليلاً ومؤقتا لبعد المنطقة عن مراكز الاستقرار العربي في الشمال الإفريقي، ولكن هذا الوجود استمر وازداد مع الأيام لجملة عوامل. فالعوامل الاقتصادية شجّعت التجار العرب المسلمين على الوصول إلى كانم عبر صحراء فزان لجلب ما فيها من السلع التجارية. كما أن بعد هذه المنطقة وسهولة الوصول إليها، لعدم وجود عوائق طبيعية، قد شجّع الجماعات التي تعرضت إلى ضغوط سياسية أو بشرية في الشمال الإفريقي، على الاندفاع عبر الصحراء ومن ثم الوصول إلى كانم. كما أن هناك الكثير من العلماء والفقهاء الذين وصلوا إلى كانم من أجل نشر العقيدة الإسلامية.

وبصورة تدريجية وجدنا أن الاستقرار العربي الدائم في كانم قد ازداد وظهرت نتائجه بشكل ملموس. ففي نهاية القرن ٥ هـ / ١١م اعتلت السلطة في كانم أسرة جاهدت لنشر الإسلام بصورة واسعة في المنطقة، كما أظهرت هذه الأسرة نسبها العربي، وإرجاع هذا النسب إلى (سيف بن ذي يزن)، أحد ملوك اليمن الحميريين. وبالرغم من كثرة الملابسات والغموض الذي يكتنف النسب العربي للأسرة المسلمة في كانم، فإنه يقوم دليلا على الوجود العربي فيها، بل يشكل نتيجة من نتائج هذا الوجود الطويل، وامتزاج العرب مع سكان المنطقة.

مصادر البحث

إن دراسة الوجود العربي في منطقة كانم[١] في السودان الأوسط أمر شائك ومعقّد، وذلك لكثرة الصعاب التي تواجه الباحث نتيجة لتداخل الحوادث وتشابكها ولقلة المادة التاريخية المتاحة وبعثرتها. أما عن طبيعة المصادر المتاحة والمعلومات المتوافرة عن موضوع البحث فلا بد للباحث من الرجوع إلى كتب الجغرافيين والمؤرخين العرب أمثال، اليعقوبي، وابن حوقل، والبكري، والادريسي، وابن بطّوطة، وابن خلدون،والعمري ، والقلقشندي، والمقريزي وغيرهم. الذين يشيرون إلى مثل هذا الموضوع. ولكن الملاحظ أن معلوماتهم لاتكفي لرسم صورة متكاملة عن تطور الوجود العربي في منطقة كانم، إلا أن ذلك لايمنع القول بأن المعلومات التي جاءت في المصنفات والمؤلفات العربية تعتبر مادة فريدة وأصيلة من نوعها عن تاريخ المنطقة الوسيط، لاسيما فيما يخص النشاط التجاري للعرب المسلمين مع كانم وتطوره عبر القرون، وهذا ما نجده في كتب الجغرافيين والرحالة فضلاً عن إشارات كثيرة عن الأسرة الحاكمة في كانم وأصولها ودورها في الجهاد من أجل نشر العقيدة الإسلامية.

أما المصادر المحلية التي تخص تاريخ هذه المنطقة، فبالرغم من صعوبة الحصول عليها، فإن المتوافر منها قد غلب عليه طابع الأسطورة أو الخيال، إلا أن ذلك لايقف حائلاً دون استخلاص الكثير من الحقائق والصور الحية اعتماداً عليها، نذكر من هذه المصادر «تاريخ الماي أدريس ألومة وغزواته»[٢] تأليف الإمام أحمد بن فرتوا مؤرخ بلاط برنو على عهد إدريس ألومة. وهذا الكتاب مكرس لنشاطات هذا الحاكم العسكرية، وفيه معلومات مفيدة عن تاريخ منطقة كانم. ومن المصادر المحلية «ديوان سلاطين برنو»[٣] الذي ألف في بلاط سلطان برنو من قبل أتباع سفرمة عمر بن عثمان في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي. والملاحظ على هذا الكتاب أنه لم يلتزم جانب الحياد في كثير من الأمور التي كتب عنها، لاسيما عند مقارنته بما جاء من معلومات في الكتب العربية الوسيطة، لذا يجب أن يكون الباحث حذرا في استخدامه.

ومن الوثائق المحلية التي يستطيع الباحث الاعتماد عليها في الكتابة عن تاريخ كانم ما يعرف بـ «المحرم» وهو مجموعة من الرسائل (ظهير ام مرسوم) احتوت على امتيازات وراثية منحت من قبل حكام كانم إلى العلماء المسلمين وعوائلهم ومن يمت لهم بصلة مقابل الخدمات التي يقدمونها. ومن الامتيازات التي تمنحها هذه المحارم، الإعفاء من الضرائب، والإعفاء من الخدمة العسكرية وغيرها. ومن الطبيعي أن تحتفظ الأسر ذات العلاقة بمثل هذه الوثائق وتسعى لتجديدها لدى حكام المنطقة المتعاقبين. وبالرغم من أن بعض هذه «المحارم» يرجع تاريخها إلى وقت مبكر فإن طول مدة تداولها قد يجعلها عرضة للتزوير في أصولها وتاريخها، لذا يجب أن يكون استخدامها بصورة حذرة (Trimingham, 1963: 110) ومن الجدير بالقول أن هذه الوثائق تحتوي على الكثير من المعلومات التاريخية عن منطقة كانم، بل يمكن اعتبارها أكبر دليل على الوجود العربي الإسلامي في المنطقة موضوع البحث لأنها تشير إلى هجرة رجالات العلم والدين العرب إلى كانم[٤] وهذا ماسنحاول توضيحه فيما بعد.

صلات العرب الأولى ببلاد كانم

في البداية لابد من تحديد موقع كانم، فهي المنطقة الواقعة إلى الشمال الشرقي من بحيرة تشاد الكبرى، وهي في عرف الكتّاب العرب الوسيطين تشكل جزءاً مما عرف عندهم بالسودان الأوسط. وتمتاز هذه المنطقة بخصوبتها مما شجّع الكثير من العناصر السكانية على القدوم إليها، لاسيما أن المنطقة خالية من العوائق الطبيعية التي تمنع عملية الوصول إليها،فضلاً عن أنها تتمتع بموقع تجاري متميز حيث تقع على ملتقى عدة طرق تربطها شرقاً بمصر وشمالاً بمناطق الشمال الافريقي والبحر المتوسط، كما تربطها بداخل القارة الافريقية في الجنوب والغرب طريق أخرى. وقد كانت الطريق الصحراوي الذي يربط كانم بمناطق الشمال الافريقي عبر صحراء فزان الجسر الاول والأهم الذي أوصل العرب إلى هذه المنطقة لاسيما أن صحراء فزان تحتل في خريطة القارة الافريقية مكانا ممتازاً. فهي المنطقة الواقعة بين طرابلس شمالاً وتبستي جنوباً، والمعروف عنها أنها منطقة صحراوية. تتناثر فيها الواحات، بل توجد فيها أكبر مجموعة واحات في الصحراء الكبرى، هذا ما جعلها أغنى المراكز الصحراوية وأكثرها سكاناً. كما أن موقعها الجغرافي قد عوضّها الكثير من قلة الموارد والأرزاق، فهي معبر عظيم من شمال القارة الافريقية إلى جنوبها وبالعكس، دونما صعوبة، إلا طول الطريق ومصاعب الصحراء.

بدأ العرب بعد وصولهم إلى (شمال أفريقيا) في القرن الأول للهجرة/ السابع للميلاد/ يتطلعون للسيطرة على الصحراء المؤدية إلى مداخل بلاد السودان الأوسط وكانم، وهي صحراء فزان التي كانت سبيلاً لوصول العروبة والإسلام من الشمال إلى الجنوب (مؤنس، ١٩٦٩ : ٨٧). ففي عام ٢٢ هـ / ٦٤٢م اتجهت كتائب من الجيش العربي المتّجه إلى شمال أفريقيا بقيادة عمرو بن العاص ـ إلى زويلة عاصمة فزّان بقيادة القائد عقبة بن نافع الفهري. أعقب هذه الحملة الاستطلاعية حملة عسكرية أقوى وأكبر عام ٤٢ هـ / ٦٦٦م استطاع فيها عقبة حمل العرب إلى مناطق السودان الواقعة جنوب فزان، وهو إقليم كوار الواقع إلى الشمال من منطقة كانم (ابن عبد الحكم، ١٩٢٠ : ٤ ـ ١٩٥). وكان من نتائج هذه الحملة إخضاع القبائل الصحراوية للحكم العربي بشكل ثابت ووصول الإسلام إليها، وهذا ما جعل العرب معروفين لدى سكان الصحراء الذين فتحوا الطريق أمامهم (العرب) للوصول بنشاطاتهم السياسية والتجارية والدينية إلى تلك المناطق والمناطق الواقعة جنوبها وهي كانم.

لم تشر الكتب العربية ـ بعد حملة عقبة بن نافع إلى مناطق فزان وكوار ـ إلى أي جهد عسكري قام به العرب في هذه المناطق، لكننا نجد ما يشير إلى أن تدفق العرب إلى مناطق فزان وبلاد السودان (كانم) جنوبها قد استمر مع الأيام بفعل عوامل عديدة سنحاول تفصيلها.

التجارة والوجود العربي في كانم

إن العلاقات التجارية بين الشمال الإفريقي ومنطقة كانم (السودان الأوسط) كانت قائمة منذ القدم على الرغم من وجود صحراء بينهما.[٢] وقد ازداد النشاط التجاري بعد دخول العرب المسلمين

إلى أفريقيا وأصبحت التجارة عبر الصحراء الوسيلة المهمة في تدفق العروبة والإسلام إلى المناطق الواقعة جنوبا (بلاد السودان).

إن كانم الواقعة في مركز هام تلتقي فيه طرق القوافل المارة عبر أفريقيا كانت قد وفرت لأسواق افريقيا والعالم الإسلامي في العصر الوسيط ما تحتاج إليها من العنصر البشري المستخدم في البيوت والمزارع (الاصطخرى، ١٩٦١: ٤ - ٣٥)، (ابن حوقل، ١٩٣٨: ٦٧) أو كجند في الجيوش الإسلامية [٦]، إذ كانت هذه التجارة (الرقيق) هي أساس التبادل التجاري بين شمال أفريقيا وكانم (حركات، ١٩٨١: ٣٣).

ومنذ القرنين ٢ و ٣ هـ / ٨ و ٩م على أقل تقدير نجد وجودا للتجار العرب في مناطق كانم، لاسيما أن الطريق التجاري الذي يربط كانم بالشمال عبر صحراء فزان كان معروفا وسهلاً (اليعقوبي، ١٨٩١: ٣٤٥). ولعل أقدم الإشارات التي وصلتنا عن النشاط التجاري العربي عبر صحراء فزان ومع مناطق السودان جنوبها كوار وكانم هي ماذكره اليعقوبي عن زويلة عاصمة فزان عندما قال:

«وراء ذلك بلد زويلة مما يلي القبلة، وهم قوم مسلمون أباضية كلهم يحجون البيت الحرام، وبها أخلاط من أهل خراسان ومن البصرة والكوفة ووراء زويلة على خمس عشرة مرحلة مدينة يقال لها كوار بها قوم من المسلمين في سائر الأحياء» ، (اليعقوبي، ١٨٩١: ٣٤٥). ومن نص اليعقوبي يتبين أن مدينة زويلة كانت تلعب دوراً بالغ الأهمية في التجارة، فهي على مايبدو مركز لتجميع البضائع السودانية وتصديرها[٧]. وفي الوقت نفسه نرى أن زويلة أصبحت مركز استقرار للتجار، ولا سيما التجار من أهل البصرة والكوفة ومن أهل الشمال الافريقي يمارسون فيها نشاطاتهم التجارية، بل ان هذه النشاطات كما يبدو من النص المذكور أيضا قد اتسعت جنوباً إلى مناطق كوار السودانية.

منذ القرن ٣ هـ / ٩م حتى القرن ٥ هـ / ١١م أصبحت التجارة عبر فزان تحت سيطرة الأباضية، وقد مارس هؤلاء أعمال التجارة حتى كانم. فالدولة الرستمية الأباضية التي قامت في بلاد المغرب (في القرن ٢ هـ / ٨م) استخدمت طريق فزان من أجل التجارة مع بلاد السودان (ابن الصغير، ١٩٠٥: ١٣، ٤٨، ٥٢). ويبدو أن صلات تجارية قديمة كانت قائمة بين كانم وجبل نفوسة (الجبل الغربي الآن). فالحاكم الأباضي لهذا الجبل أبو عبيد عبد الحميد الجناوي في (القرن ٣ هـ / ٩ م) كان يتكلم لغة كانم إضافة إلى معرفته العربية والبربرية[٨]، ولا بد أن تكون معرفة هذا الحاكم باللغة الكانمية متأتية من صلات الاباضية بكانم. ويعتقد بعض الباحثين «ان العلاقة بين الأباضية في شمال أفريقيا ومناطق السودان كانت اقتصادية بالدرجة الأولى. أي أن التجارة كانت الحافز الأهم في عبور الأباضية الصحراء وتحمل المشاق ووصولهم إلى السودان، يضاف إلى ذلك حافز نشر الإسلام (الحرير، ١٩٨٣: ٧٧) كما لاننسى أن نشير إلى أن الحكومات الأباضية الصغيرة التي نشأت في مدينة زويلة حتى القرن ٥ هـ / ١١م قد وجهت اهتمامها إلى التجارة بين الشمال الافريقي وكانم عبر الصحراء (Martin, 1969:19).

استمر النشاط التجاري العربي مع كانم في القرن ٥ هـ / ١١م و ٦ هـ / ١٢م، واستمرت زويلة عاصمة فزان تمارس دورها كوسيط في التجارة القائمة بين كانم وشمال افريقيا (البكري، ١٩٥٦ : ١١)،(مؤلف مجهول، ١٩٥٨ : ١٤٩). ويبدو أن حركة التجارة في فزان قد استمرت في القرن ٦ هـ / ١٢م (الإدريسي، ١٩٥٧ :١٣، ٢٠)، لكنهـا اصبحت تحت سيطرت دولـة كانم، التي احكمت السيطرة على صحراء فزان، وكذلك هو الحال بالنسبة للنشاطات التجارية. ولعل السبب في ذلك يعود إلى جملة من المتغيرات التي حدثت في الشمال الافريقي، منها هجرة العرب الهلاليين من مصر إلى بلاد المغرب في منتصف القرن ٥ هـ / ١١م وما تبع مجيئهم من فوضى سياسية واقتصادية وفشل المرابطين والموحدين في السيطرة على تجارة البحر المتوسط وسيطرة المدن الإيطالية وبخاصة جنوة على التجارة فيه (موسى، ١٩٨٣ : ٣٤٧، ٣٨٣). وكـانت حصيلة ذلك أن سيطرت دولة كانم على صحراء فزان وأصبحت النشاطات التجارية عبرها تحت رحمتها (ابن سعيد، ١٩٧٠ : ٩٥) إلا أن ذلك لم يمنع التجار العرب من الاستمرار في علاقاتهم التجارية مع كانم (ابن خلدون، ١٩٥٩، جـ ٧، جـ ٨ : ٤١٢).

وأخـيراً فيمكن القـول إن النشاطات التجارية العربية عبر فزان التي امتدت قرونا طويلة قد أوصلت العرب إلى مناطق كانم، وذلك ما تؤكده إحدى المخطوطات المحلية المعنونة بـ «قصة الماى دولة الديبالي أبو زوجة أمير بلالة، وهي جزء من كتاب الإمام أحمد بن فرتوا «تاريخ الملك إدريس» فتذكر أن عرب فزان كانوا يصلون إلى كانم بصفة تجار يحملون البضائع منها وإليها (Palmer, 1967, vol, II (43: ورغم أننا لانملك إشارات صريحة إلى الاستقرار الدائم للتجار العرب في كانم، فإننا نرى أن انتشار الإسلام فيها وإسلام أسرتها الحاكمة في القرن ٥ هـ / ١١م كانا نتيجة النشاطات التجارية العربية وذلك لبعد المنطقة عن مراكز نشر الدعوة الإسلامية في المغرب (الشمال الإفريقي).

الهجرات العربية وأثرها في الوجود العربي في كانم

في البدء لابد من القول ان حركتي التجارة والهجرة العربية ـ الإسلامية متشابكتان ومرتبطتان بعضهما ببعض، بل إن إحداهما تكمل الأخرى فمنطقة بحيرة تشاد التي تقع فيها كانم كانت منطقة خصبة قدمت إليها منذ القدم الكثير من العناصر السكانية[٩]. ونظرا لخلو المنطقة من العوائق الطبيعية فقد أدى ذلك إلى سهولة الهجرة إليها واستقرار كثير من المجموعات البشرية فيها ومن جملتهم العرب: وشهدت المنطقة سيلاً من الهجرات لم ينقطع من ناحية الشمال (بلاد المغرب) ومن ناحية الشرق (حوض النيل) لاسيما بعد دخول العرب ـ المسلمين إلى مصر وأفريقيا الشمالية في القرن ١هـ / ٧م. وسوف نحاول فيما يلي التركيز على الهجرات القادمة من الشمال وبخاصة أننا قد ذكرنا أن أول وجود للعرب في المناطق المجاورة لكانم يرجع إلى عام ٤٢هـ / ٦٦٢م وهي السنة التي وصلت فيها طلائع العرب ـ المسلمين بقيادة عقبة بن نافع إلى إقليم كوار، وأن الطريق الذي سلكه عقبة وأتباعه كان يربط كانم بمناطق طرابلس في بلاد المغرب عبر صحراء فزان.

كانت أسباب دخول العرب إلى كانم متنوعة، فبالاضافة إلى العامل التجاري وتوغل العرب

داخل الصحراء ومناطق السودان جنوبها كما فصلنا سابقاً أسهمت العوامل السياسية والبشرية والدينية في تدفق العناصر العربية إلى هذه المنطقة.

وفيما يخص العامل السياسي فاننا نلاحظ أن الأحداث السياسية في الدولة العربية الإسلامية قد دفعت بعض العناصر العربية إلى الهجرة إلى بلاد السودان ومنها كانم، باعتبارها مناطق نائية بعيدة عن نفوذ السلطة المركزية. وتؤكد لنا مخطوطة محلية بعنوان «وسط افريقيا» دور العامل السياسي في الهجرة من شمال افريقيا إلى كانم عندما تشير إلى أن أعداداً كبيرة من البشر جاءت إلى السودان الأوسط من شمال افريقيا بعد التغيرات والحروب الكثيرة التي حدثت فيها. (Palmer, 1967, Vol, II :54)

ويبدو أن الخوارج الأباضية كانوا من بين أول وأكثر المجموعات التي أجبرتها الظروف السياسية على ترك الشمال (بلاد المغرب) والهجرة جنوبا إلى الصحراء وبلاد السودان[1]. ومن الملاحظ أن عقيدة الخوارج الأباضية قد انتشرت في بلاد المغرب منذ القرن ٢ هـ / ٨م، ونتيجة للفوضى السياسية التي أشاعتها الأباضية في المنطقة، قامت الدولة العباسية بالتصدي لها وتم دحر الخوارج الأباضية سياسيا في طرابلس والقيروان على يد الوالي العباسي محمد بن الأشعث الخزاعي (١٤٤-١٤٨هـ). ونتيجة لهذا الفشل السياسي للأباضية في الشمال انسحبت مجموعات منهم إلى الصحراء واستقرت في مدينة زويلة (عاصمة فزان) وكان يترأس هذه المجموعات منهم شخص يسمى عبدالله بن حيان الأباضي، لكن ابن الاشعث وجّه عام ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م حملة لقمعها (ابن عذاري ، ١٩٦٧ ، جـ ١ : ٧٣). ومن الجماعات الأباضية التي استقرت في فزان في القرن ٤ هـ / ١٠ م مجموعة يقودها عبدالله بن خطاب الهوارى الأباضي، وقد استطاع هو وبنو عمه، أن يؤسس حكومة صغيرة في عام ٣٠٦هـ / ٩١٨م في مدينة زويلة (الادريسي، ١٩٥٧ : ٢٤). كما يجب أن نشير إلى أن الدولة الرسمية الأباضية في تاهرت في الشمال الإفريقي، كانت لها علاقات وطيدة مع الصحراء والمناطق جنوبها ومن ضمنها كانم (الحرير، ١٩٨٣ : ٨٦). وظل نفوذ الأباضية في صحراء فزّان طوال القرنين ٤ و ٥ / ١٠ و ١١م قائما. وكانت لهم السيطرة على الطريق الصحراوي الذي يربط كانم بالشمال الافريقي عبر فزان (Martin , 1969: 1). ولعل الوجود الأباضي الطويل في صحراء فزان قد ساعد على تسرب العناصر العربية إلى الجنوب حيث كانم. ورغم أننا لانجد في المصادر العربية الوسيطة إشارة إلى ذلك فإن المصادر المحلية قد ذكرته صراحة. ففي مخطوطة «وسط أفريقيا» نجد العبارة الآتية: إن القبائل العربية قد جاءت إلى وسط أفريقيا أيام حكم الأباضية (Palmer, 1967, Vol. II: 54) .

ومن الجماعات التي هاجرت إلى مناطق كانم بفعل الظروف السياسية الأمويون، حيث يذكر البكري أن أهل كانم «يزعمون أن هناك قوما من بني أمية صاروا إليهم عند محنتهم بالعباسيين وهم على زي العرب وأحوالهم» (البكرى: ١١).

وبالرغم من أن البكري في القرن ٥ هـ / ١١م قد عرض للوجود العربي في كانم بصيغة الشك، وهذا ناتج على ما نعتقد من عدم زيارته للمنطقة ومشاهدته للعرب بعينه ، فإن هذا النص يلقى أضواء هامة على تطور الوجود العربي في كانم، فهذه هي المرة الأولى التي يشير فيها كاتب عربي إلى استقرار

العرب في المنطقة ويتفق هذا مع ما جاء في المصادر المحلية في كانم التي تربط نسب الأسر الحاكمة فيها بالامويين (Palmer, 1967, Vol. I: 6,8) .

أما فيما يخص العامل البشري وهجرته إلى مناطق كانم، فلعل الزيادة السكانية التي حصلت في شمال افريقيا، وبالذات بعد منتصف القرن ٥هـ / ١١م، قد أدت إلى اندفاع الكثير من العناصر البشرية جنوبا إلى الصحراء وبلاد السودان. ففي منتصف القرن المذكور اندفعت القبائل العربية الهلالية (المستقرة في الجوف الشرقي من مصر منذ القرن ٢ هـ / ٨م) إلى بلاد المغرب بأعداد كبيرة جداً، منتشرة في كل مكان في الشمال الافريقي والصحراء[١١] .

وفيما يخص الصحراء باعتبارها المنفذ إلى بلاد السودان وجنوبها فإن النصوص العربية التي بين أيدينا تشير إلى أن العرب الهلالية قد انتشروا في صحارى المغرب وأولاها صحارى فزان، التي تحد كانم من الشمال ويبدو ان أعداد العرب الهلالية التي تسربت من الشمال إلى فزان كانت كبيرة بحيث سيطرت على الصحراء كلها، وفي هذا يقول الإدريسي الذي كتب بعد دخول الهلالية إلى المغرب وصحاريه بقليل أن: «مدينة زويلة مدينة صغيرة وبها أسواق ومنها يدخل في بلاد السودان، والمسافرون يأتونها بأمتعة من جهاتها وجمل في أمور يحتاج إليها. والعرب تجول في أرضها وتضر بأهلها قدر الاستطاعة. . . وكل هذه الاراضي التي ذكرناها ملك بأيدي العرب. . .» (الادريسي: ٢ ـ ١٣٣)

ويبدو أن العرب الذين انتشروا في صحراء فزان بعد القرن ٥ هـ / ١١م بدأوا ينافسون سكان المنطقة على عنصري الحياة فيها وهما الماء والكلأ، مما أدى إلى اندفاع سكان فزان جنوباً إلى مناطق السودان، وفي هذا يخبرنا ابن سعيد المغربي: «بلاد كوار هم سودان مسلمون. . . وفي شرقي كوار بحيرة السول وكثيرا ما كانت تقع الفتن بين سكان كوار، وبرابرة الصحراء وأعراب فزان على هاتين البحيرتين (بحيرة كوار وبحيرة سول)»(ابن سعيد ، ١٩٧٠ : ١١٤).

كما نجد في «محرم تودا» الذي نشره بالمر Palmer أن العناصر الفزانية وصلت إلى مناطق كوار. ويذكر منهم بنو مختار الذين استقروا في هذه المنطقة (palmer, 1967, Vol. III , 5) . ويبدو أن نتائج وصول العرب المسلمين إلى مناطق كوار السودانية قد ظهرت واضحة في القرن ٧ هـ / ١٣م حين نجد ان سكان هذه المنطقة قد أصبحوا مسلمين «وقد تخلق أهل كوار بأخلاق البيض في لبس الصوف والقطن والبرود» (ابن سعيد، ١٩٧٠ : ١١٤) وهذا دليل على تبني المنطقة للسمات الحضارية العربية الإسلامية.

والأهم من ذلك كله هو أن الوجود العربي في مناطق فزان والسودان جنوبها بعد القرن ٥ هـ / ١١م يعني الوجود العربي في مناطق كانم. فالمصادر المحلية في السودان الأوسط تؤكد لنا وجود صلات قوية بين عرب فزان وأهل كانم[١٢] كما أن نتائج الوجود العربي في السودان الأوسط جاءت حاسمة حين أعلنت مملكة كانم إسلامها في القرن ٥هـ / ١١م وهو ما سنفصله فيما بعد .

إلى جانب الهجرات الجماعية العربية، كانت هناك هجرات فرادية أيضا إلى المنطقة فقد قام الكثير من العلماء المسلمين العرب برحلات إلى بلاد السودان ومنها كانم من أجل نشر الدين الإسلامي وهو الهدف السامي الذي خرج العرب من أجله من جزيرتهم، وفي المصادر المحلية المسماة «المحارم» مايؤكد هجرة واستقرار هذه الفئة من الناس في كانم. ففي المحرم الخاص بأسرة مسبارمة، نجد أن الشيخ الحكيم محمد مسبارمة بن عثمان الحميري، كان قد عبر البحر الأحمر من اليمن إلى أفريقيا واستقر في كانم أيام الماى علي (ت ١٥٠٣) وقد قربه هذا الحاكم وأصبح وزيره ولازمه ليل نهار، كما يذكر المحرم أن عالما عربيا آخر جاء إلى الماي علي وهو أحمد بن بشير واستقر في منطقة كانم .(Palmer , 1967: Vol. III: 7 - 16) كما هاجر بعض علماء المالكية قي مصر واستقروا فيها أيضا ويبدو أن وجود هؤلاء العلماء كان له الأثر الكبير في انتشار المذهب المالكي هناك (ابن يونس، ١٩٧٠ : ٥٨) ، (Trimingham , 1963: 115) . والمتتبع للهجرات العربية إلى مناطق السودان الأوسط يلاحظ استمرارية هذه الهجرات سواء أكانت جماعية أم فرادية، وهذا مايؤكد قضية الوجود العربي في منطقة كانم.

مظاهر الوجود العربي ـ الإسلامي في كانم

لدراسة موضوع الوجود العربي في كانم، لابد من معرفة أمرين أولهما انتشار الإسلام فيها وثانيهما أسرتها الحاكمة المسلمة، والنسب العربي الذي حملته، وكلاهما خير دليل على الوجود العربي في هذه المنطقة.

إذا كان تأثير الإسلام في كانم قد بدأ مبكراً منذ القرن ١ هـ ٧م بفعل الاتصال العربي بالمنطقة فإن انتشار الإسلام الواسع المنظم حدث في القرن ٥ هـ / ١١م وما بعده، حين قام حكم إسلامي في كانم، أما قبل ذلك فقد كانت المنطقة خاضعة لحكم وثني بزعامة قبيلة زغاوة.

وفيما يخص زغاوة فأخبارها كثيرة وغامضة، وأفرادها على مايبدو بدو السودان [٣] الذين كانوا يسكنون شرقي السودان النيلي (إلى الشمال من دارفور) وربما هاجروا في بداية القرن ٢ هـ / ٨م غرباً وانتشروا في مساحة رحبة تمتد من دارفور حتى بحيرة تشاد وكوار (Trimingham, 1963: 110)،(طرخان ، ١٩٧٥ : ٦ ـ ٤٧). وإلى قبيلة زغاوة يرجع تأسيس مملكة كانم. وأول من أشار إلى ذلك هو اليعقوبي في القرن ٣ هـ / ٩م ، حين وصف زغاوة بأنهم سكان وحكام كانم (اليعقوبي، ١٩٦٤، جـ ١ : ١٦٨) وبشهادة من المهلبي نجد أن زغاوة كانوا دائما في المنطقة الواقعة إلى الشرق من بحيرة تشاد، وأن مملكتهم من ممالك السودان العظيمة تهيمن على منطقة واسعة (الحموي، ١٩٥٧، م ٣ : ١٤٢)، والذي يهمنا في شأن زغاوة هو حقيقة عدم توسع انتشار الإسلام ونشوء مملكة إسلامية في المنطقة أيام سيطرتهم، ويمكن أن نفسر ذلك بالصورة التالية : ان الوجود العربي في منطقة كانم خلال حكم زغاوة كان مؤقتاً، فالقادمون العرب ومعظمهم من التجار لم يقيموا طويلا، لأن وجودهم واستقرارهم ، كما أشرنا سابقا، كان في زويلة المركز التجاي في صحراء فزّان وفي كوار السودانية كما ان بُعد كانم وانعزالها عن مراكز الدعوة الإسلامية في الشمال الافريقي قد ساعد حكام زغاوة على فرض نظام يقوم على معتقد وثني يقدس الملك. ويعطينا المهلبي بعض التفاصيل عن هذا الموضوع نقتبس منها قوله :

«ومملكة زغاوة عظيمة من ممالك السودان ، وهم يعظمونه (ملكهم) ويعبدونه من دون الله ويتوهمون أنه لايأكل الطعام، وديانتهم عبادة ملوكهم يعتقدون أنهم يُحيون ويُميتون ويُمرضون ويُصحّون . .» (الحموي، ١٩٥٧، م ٣ : ١٤٢).

ومعنى ذلك أن النظام السياسي في كانم كان يحول دون توسع انتشار الإسلام، فلابد إذن من تغيير سياسي وهذا ما حدث في القرن ٥ هـ / ١١م عندما تولى مقاليد الحكم في كانم أسرة مسلمة وزال حكم زغاوة. وارتبط صعود الأسرة المسلمة في كانم بانتشارَ واسع للإسلام في المنطقة. فالبكري الذي كتب كتابه في النصف الثاني من القرن ٥ هـ / ١١م لم يذكر زغاوة ، لكنه أشار إلى أن أهل كانم ما زالوا وثنيين (البكري، ١٩٥٦ : ١١). والإشارة الأولى عن تغير نظام الحكم في كانم جاءت من الإدريسي القرن ٦ هـ / ١٢م حين أشار إلى وجود زغاوة خارج كانم وعن صلات بين زغاوة وبينها ، ولكنه لم يذكر شيئا عن الوضع الديني في المنطقة (الإدريسي ، ١٩٥٧ : ٢ ـ ١٣). أما ابن سعيد في القرن ٧ هـ / ١٣م فقد سجل بصورة صريحة وجود حاكم مسلم في كانم يعمل على نشر الإسلام ، فهو يقول:

«ومن مدن الكانم المشهورة مانان. . . وفي شرقها وجنوبها قاعدة الكانم جيمي. . . وفيها سلطان كانم المشهور بالجهاد وأفعال الخير، محمدي من ولد سيف بن ذي يزن ، وكانت قاعدة جدوده الكفرة قبل ان يسلموا مدينة مانان ثم أسلم جده الرابع على يد فقهاء الإسلام في بلد كانم ». (ابن سعيد، ١٩٧٠ : ٥٩) . وبهذا يكون ابن سعيد قد ربط إسلام كانم بإسلام ملكها. وهكذا نجد في قراءتنا للمصادر العربية الوسيطة ، لاسيما الجغرافية منها، أن القرن ٥ هـ / ١١م شهد تغيرات هامة كان لها علاقة بتوسع انتشار الإسلام، وتحول زغاوة من طبقة حاكمة ، حين فقدت امتيازاتها، إلى مجموعة بشرية تعيش في منطقة محدودة إلى الشرق من كانم، كما حدد ذلك الإدريسي (الإدريسي، ١٩٥٧ : ١٣).

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا ما الذي حدث في القرن ٥ هـ / ١١م وأدّى إلى صعود ملك مسلم إلى السلطة وزوال نفوذ زغاوة؟ إن الصعوبة التي تواجهنا في الإجابة عن هذا السؤال تكمن في عدم معرفتنا بالظروف التي أحاطت اعتلاء أول حاكم مسلم للسلطة في كانم. هل تسلم الحكم من سلفه الوثني عن طريق الإرث أو عن طريق القوة؟ وهل كان مسلماً قبل أن يتسلم السلطة أم أسلم بعد ذلك؟

إذا عدنا إلى ما جاء في «ديوان سلاطين برنو» وهو الوثيقة الرسمية الخاصة بالأسرة المسلمة التي حكمت كانم (الأسرة السيفية) نجدها لم تدون أحداث هذا العصر مع قربه منها، واكتفت بالإشارة إلى انتقال الحكم إلى «بني حماي حماة الإسلام» [١٤] .

على أي حال فلابد من وجود جملة عوامل أدت إلى وصول أسرة مسلمة إلى الحكم. وهي كما نرى عوامل دينية وسياسية واقتصادية . فاذا رجعنا إلى قضية الوجود العربي الطويل في كانم نجده

مسؤولا عن التغير الذي حدث في المنطقة في القرن ٥ هـ / ١١م . فكل النصوص التي بين أيدينا تؤكد أن العـرب ـ المسلمين المستقرين في كانم كانوا هم المسؤولين عن الانتشار الواسع للإسلام فيها ، وصعود ملك مسلم إلى السلطة وتفرق أتباع النظام القديم. فإذا كان البكري قد اكتفى بالإشارة إلى وجود عرب أمويين في كانم، كما أشرنا أعلاه، فإن العمري يعتبر هؤلاء مسؤولين عن انتشاره في المنطقة بقوله «إن الإسلام انتشر في كانم على يد شخص يدعى الهادي العثماني، ادّعى أنه من ولد عثمان بن عفان»[١٥].

ومن النصـوص المعاصرة لأحداث التغير في كانم نجد في كتاب «الاستبصار» تحديدا لتاريخ انتشار الإسلام فيها بعام ٥٠٠ هـ (مؤلف مجهول ، ١٩٥٨ : ١٤٦). وربما يتطابق هذا مع ما جاء في المخطوط القديم الذي حصل عليه إبراهيم صالح بن يونس والذي يحدد ٤٨٠ هـ تاريخا لوصول أول ملك مسلم وهو أومي أو حومي إلى السلطة (ابن يونس ، ١٩٧٠ : ٦١). ويبدو أن أحداث هذه الفترة كانت حاسمة في نشر الإسلام وترسيخه في المنطقة، حيث نجد أن إسلام حكامها تبعه جهادهم في سبيل نشره بصورة واسعة وهذا ما يشير إليه ابن سعيد في القرن ٧ هـ ١٣م بقوله :

«سلطان الكانم المشهور بالجهاد وأفعال الخير، محمدي من و لد سيف بن ذي يزن . وكانت قاعدة جدوده الكفرة قبل أن يسلموا مدينة مانان ثم أسلم منهم جده الرابع على يد فقهاء الإسلام في بلد الكانم. ولهذا السلطان هناك مثل سلطنة تجوه ومملكة كوار ومملكة فزان، وقد أيدَّه الله وكثر نسله وعساكره، **والثياب تجمل** إليه من الحضرة التونسية وعنده الفقهاء » (ابن سعيد ١٩٧٠ : ٩٥). إن قول ابن سعيد يؤكد لنا أن العرب الموجودين في كانم ـ لاسيما الفقهاء ـ هم المسؤلون عن إسلام ملكها. ولدينا في المصادر المحلية في كانم إشارات تثبت أن العلماء والفقهاء كانوا السبب في انتشار الإسلام وإسلام الأسرة الحاكمة في كانم، فقد جاء في إحدى المحارم، «محرم الإمام جلمى»، أن الفقيه محمد بن مانن الذي عاش في كانم في القرن ٥ هـ / ١١ م هو الذي نشر الإسلام في المنطقة (Palmer, 1967, Vol. III:3) . كما تؤكد هذه المحارم أن العلماء والفقهاء أصبحوا هم وزراء لحكام كانم المسلمين أو من مقربيهم (Palmer, 1967, Vol. III : 7-16) . وهكذا يمكن القول إن العرب ـ المسلمين المستقرين في كانم قد عملوا على إضعاف النظام الديني الوثني الذي فرضته زغاوة في المنطقة وساعدوا على انهياره بارتقاء حاكم مسلم للسلطة.

ويبـدو أن الفـترة الحاسمة في حياة كانم (القرن ٥ هـ / ١١م) قد شهدت ضعفاً في النظام السياسي لزغاوة ودليلنا على ذلك ما جاء في «ديوان سلاطين برنو» أن آخر ملوك زغاوة مات وهو يقاتل في مكـان يدعى زيلا في (فـزان) في منتصف القرن المذكور (Lange , 1977: 503).وبالرغم من أننا لانملك أي إشارة عن ظروف موته، فإننا نستطيع أن نفترض بأنه مات وهو يحارب سكان فزان من العـرب الهـلالية، حيث شهـدت هذه الفـترة من تاريخ فزان انتشارهم في المنطقة وهيمنتهم عليها (الإدريسي، ١٩٥٧ : ٢ ـ ١٣٣). بل إنهم على ما يظهـر بدأوا يشكلون خطراً على مصـالح زغاوة التجارية في فزان التي كانت تحتل موقعا مهما في تجارة كانم مع الشمال.ومما يؤكد قولنا أننا نلاحظ أن الصراع على فزان استمر بين حكام كانم وسكان فزان حتى بعد زوال حكم زغاوة الوثني. فالأسرة

المسلمة في كانم قد دخلت في صراع طويل من أجل السيطرة على فزان (Palmer ,1967 ,Vol. II : 33, 39, 42) لحماية مصالحها الاقتصادية. وقد نجحت في أن تجعل الطريق التجاري الذي يربط كانم بالشمال الإفريقي عبر صحراء فزان تحت سيطرتها في القرن ٧ هـ / ١٣م (ابن سعيد ، ١٩٧٠ : ٩٥).

وهكذا نجد أن ظروف القرن ٥ هـ / ١١م ، ولا سيما الوجود العربي الهلالي في فزان قد أضعف بلا ريب نظام زغاوة وساعد على وصول أول حاكم مسلم إلى السلطة كما ساعدت الظروف الاقتصادية في ذلك أيضا. فنظام زغاوة الوثني كان يعتمد في اقتصادياته على تجارة الرقيق، وكان الحاكم الزغاوي يعمل جاهداً على استمرار هذه التجارة مع الشمال. لذا نجده لايتورع عن إرسال رعاياه «رقيقاً» إلى الشمال كما يعمل غيره من ملوك السودان . وفي هذا يقول اليعقوبي وهو يتكلم على تجارة الرقيق في زويلة :

« وبلغني أن ملوك السودان يبيعون السودان من غير شيء ولا حرب». (اليعقوبي ، ١٨٩١ : ٣٤٥).

ومن المؤكد أن المبادىء الإسلامية التي وصلت كانم منذ وقت مبكر قد عرّفت سكانها السودانيين على استحالة استرقاق المسلم، وبمعنى آخر ان الوجود الإسلامي في كانم كان قد خلق عقبات أمام تجارة الرقيق التي يعتمد عليها نظام الحكم الوثني في زغاوة. ، يضاف إلى ذلك أن الوضع الاقتصادي في الشمال الإفريقي كان مرتبكا في النصف الثاني من القرن ٥ هـ / ١١م بسبب الهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب وما نتج عنها من انهيار النظام السياسي (حكم آل زيرى)[١٦]. ولا بد أن يؤثر بصورة ما على النشاط الاقتصادي لكانم، فقد قل الطلب على الرقيق، في هذه الفترة على الأقل، في الشمال الافريقي، وترك الأمر أثره على مملكة زغاوة التي ارتبطت مصالحها الاقتصادية بالشمال واعتمدت على تجارة الرقيق في اقتصادياتها . كل هذه الظروف لابد أن تكون قد ساهمت في وصول أسرة مسلمة إلى السلطة في كانم في النصف الثاني من القرن ٥ هـ / ١١م . وما يهمنا في شأن هذه الأسرة الذي يرتبط بقضية الوجود العربي في كانم، هو النسب العربي الذي حملته.

إن أول إشارة وصلت إلينا عن أصل الأسرة المسلمة الحاكمة في كانم جاءت في القرن ٧ هـ / ١٣م عندما ذكر ابن سعيد أن «سلطان كانم محمدي من ولد سيف» بن ذي يزن وسيف بن ذي يزن هو أحد ملوك اليمن قبل الإسلام ، عربي حميري، وقد أكد لنا القلقشندي. في القرن ٨ هـ / ١٤م هذا النسب عندما سجل رسالة أحد ملوك كانم وهو الماي عثمان بن إدريس (١٣٩٢ ـ ١٤٢٤م)، إلى برقوق سلطان مصر المملوكي، يشكو فيها الأول من اعتداءات عرب جذام على بلاده ويقول : إنه من «بنو سيف بن ذي يزن والد قبيلتنا». (القلقشندي، بدون تاريخ ، جـ ٥ : ١٧).

ويبدو من تصفح وثائق ورسائل ملوك كانم، والكتب التي أرخها مؤرخوهم انتساب ملوك كانم إلى السيفيين الحميريين، وأن سلسلة نسبهم ترجعهم إلى سيف بن ذي يزن باعتباره جدهم وأول ملوكهم (Palmer , 1967, Vol, I : 45, 15, 16, Vol.II : 87) .

إن التحقيق في النسب السيفي الحميري للأسرة الحاكمة في كانم من الأمور الصعبة جداً ،

لاسيما ونحن لانملك اي إشارة في الكتب العربية إلى هجرة يمنية إلى منطقة كانم ، أما المخطوطات المحلية فإنها تشير بإصرار إلى أن أسرة سيف بن ذي يزن قد تركت اليمن إلى أفريقيا ووصلت إلى كانم (Palmer, 1967, Vol. II: 10, 87, Vol, III, 1-20).بل إن هذه المصادر تذهب إلى أن الأسرة الحاكمة في كانم كانت تحمل النسب الحميري منذ أن كانت وثنية ، أي أنها أعطت لزغاوة النسب الحميري العربي أيضا . إن عدم وجود أدلة أخرى غير المصادر المحلية عن النسب اليمني لملوك كانم تجعلنا غير قادرين على البتّ فيه ، لاسيما أن هناك ملابسات حول هذا النسب بين حكام كانم أنفسهم . فنلاحظ أن أحد ملوك كانم وهو الماي عثمان بن إدريس في القرن ٩ هـ / ١٥م (وهو الملك الثالث والثلاثون في سلسلة مايات برنو) يذكر في رسالة بعث بها إلى أحد (سلاطين) الدولة الظاهرية في مصر (الملك الظاهر برقوق) انه من ذرية سيف بن ذي يزن وأنه قرشيّ، وهذا خلط واضح في النسب يستنكره القلقشندي الذي سجل هذه الرسالة :

«وقد وصل كتاب ملك البرنو في أواخر الدولة الظاهرية (برقوق) يذكر فيه أنه من ذرية سيف بن ذي يزن الا انه لم يحقق النسب فذكر انه من قريش وهو غلط منهم فان سيف بن ذي يزن من أعقاب تبابعة اليمن من حمير» . (القلقشندي ، بدون تاريخ ، جـ ٥ : ٢٧٩) .

ومن الملابسات الأخرى في نسب الأسرة السيفية أن مؤرخي حوليات كانم عندما بدأوا كتابة تاريخ ملوكهم وجدناهم يستهلونه بخلفاء بني أمية وينتهون إلى عهد عمر بن عبد العزيز ، وبذلك انتسبوا إلى الأمويين (Palmer , 1967, Vol . I: 6,8) كما نجد منهم من انتسب إلى العلويين (القلقلشندي ، بدون تاريخ ، جـ ٥ : ٢١٨) ومع كل هذه الملابسات فإننا لانستطيع أن نرفض بصورة قاطعة النسب العربي ، لحكام كانم المسلمين لاسيما أن هؤلاء الحكام حملوه وافتخروا به وأكدوه وأصرّ عليه كتابهم .

لقد حاول بعض الباحثين المحدثين إيجاد مخرج لأصل الأسرة السيفية . فبالمر مثلا ، حاول تحليل الرأي القائل بأن الأسرة السيفية ترجع أصلا إلى عرب اليمن ووجد مخرجا لهذا الأمر في مخطوطة عربية عُثر عليها في تمبتكو في القرن ١٧م . وجوهر ما توصل إليه بالمر أن سيف بن ذي يزن كان متزوجا من إحدى سيدات التورماغوريين أي القبيلة التي ينتسب إليها حكام كانم ، ومن هنا جاءت الصلة بين سيف والأسرة الحاكمة في كانم (Palmer , 1967, Vol . III: 20, 22) ، (طرخان ، ١٩٧٥ : ٥٧ ، ٧١).كما حاول آخرون تفسير النسب اليمنى للأسرة السيفية من خلال الافتراض بأن مجموعة من الطوارق الملثمين قد هاجرت إلى كانم في نهاية القرن ٥ هـ / ١١م واستطاعت أن تصل إلى السلطة في المنطقة، ولما كان الملثمون كجميع قبائل صنهاجة يظهرون النسب الحميري ، فإن الأسرة الحاكمة في كانم - التي ترجع نسبها إلى سيف بن ذي يزن - تنحدر من أصل ملثمي حميري (محمود ، ١٩٥٧ ، جـ ١ : ٢٥٦) وهذا الرأي يخالف ما جاء في المصادر المحلية السيفية التي تشير إلى أن حكام كانم يحملون النسب الحميري منذ أن كانوا وثنيين ، أي أنها أعطت زغاوة النسب الحميري أيضا . (Palmer , 1967, Vol, II : 87) ، بعد هذا كله يمكن القول إن الوجود العربي في كانم هو المسؤول عن النسب العربي الذي يحمله حكام كانم ، إذ من المفروض أن يكون العرب القادمون إلى كانم قد اختلطوا بسكان

المنطقة وتزوجوا منهم. ومما يعزز قولنا مانجده في المصادر المحلية في كانم من إشارات وإن كانت متأخرة، إلى زواج حكام كانم من القبائل العربية. فقد جاء في مخطوطة «قصة الماى دونمة الديبالي صاحب نجيمي وأبو زوجته أمير بلالة المسمى عمر بلالة» ، أن الماي دونمة (حكم ١٢٢١ ـ ١٢٥٩م) قد تزوج من ابنة الأمير عمر من قبائل بولالا التي تحمل الأصول العربية والتي تسكن شرقي كانم ، وقد انجبت له ولداً سمي إدريسي (Palmer , 1967, Vol. II:42) .

وأخيرا لابد من القول بأن الوجود العربي في كانم حقيقة لايمكن نكرانها. بالرغم من أن صلة العرب بكانم قديمة، فإن الوجود العربي فيها كان مؤقتا وقليلا في البداية لبعد المنطقة عن مراكز الاستقرار العربي في الشمال الافريقي، ولكن العوامل الاقتصادية قد شجعت التجار العرب على الوصول إلى كانم عبر صحراء فزان، كما أن الضغوط السياسية قد أجبرت بعض العرب ـ المسلمين على التوغل في الصحراء والوصول إلى كانم بعيداً عن السلطة في الشمال الافريقي، ولا ننس أن نذكر أن هناك الكثير من العلماء والفقهاء المسلمين قد وصلوا إلى كانم من أجل نشر العقيدة الإسلامية السامية وبصورة تدريجية ، نجد أن الاستقرار الدائم للعرب في كانم قد ازداد وظهرت نتائجه سريعا حين قامت دولة إسلامية هناك بلغت من العظمة والقوة والعمر الطويل مالم تبلغه دولة افريقية غيرها . فقد عاشت هذه الدولة أكثر من تسعة قرون، واعتنقت الدين الإسلامي وأخذت بالحضارة العربية الإسلامية ، فصارت العربية لغتها الرسمية في شتى مجالات الحياة من نظم حكم وإدارة واقتصاد وثقافة وعلوم وفنون (طرخان ، ١٩٥٧ : ٧).

الهوامش

(١) تعّد كانم ضمن حدود تشاد الحالية، وتقع بعض أجزائها في جمهورية النيجر أيضا

(٢) نَشَرهُ بالمر تحت عنوان :

Ta'rik mai Idris
Waghaz watihi, (Kano, 1930)

كما ترجمه المؤلف المذكور في كتابه

Sudanes Memoirs (London. 1967)
Vol. 1,, pp. 15 - 75.

(٣) كان بارث H. Barth ، في رحلته إلى الصحراء الافريقية والمناطق جنوبها عام ١٨٥٣ ، أول من استفاد من مخطوط هذا الكتاب. انظر: Travels, II, pp. 633-71.
ثم ترجم بالمر هذا الكتاب إلى الإنكليزية بعنوان: Bornu, Sahara and Sudan (London, 1936).

(٤) ترجم بالمر Palmer عددا من هذه المحارم في كتابيه :

— Bornu, Sahara and Sudan (London, 1936).

— Sudanes Memoirs, Vol. II (London, 1967)

كما ترجم عدداً من الرسائل العربية والمعاهدات والقصائد الشعرية العربية الخاصة بتاريخ كانم ـ برنو. وسوف يكون اعتمادنا في البحث على الكتاب الثاني لبالمر.

(٥) عن التجارة الصحراوية في افريقيا قبل الإسلام انظر: R. C. C. Law the Garamantes and trans - Saharan enterprise in classical time" Journal of African History, Vol. VIII (1967), pp. 182-200.

(٦) انظر
J. E. P. Hopkins, Medieval muslim Government in Barbary (London 1958) pp. 7-3, 75-78
لابد من الإشارة إلى أن طبيعة تجارة الرقيق، في التاريخ العربي الإسلامي مختلفة تماما عن تجارة الرقيق،وما قام به الأوربيون من عملية استرقاق البشر في افريقيا، ويكفينا الاشارة إلى أن القرآن الكريم يحوي الكثير من التعاليم الخاصة بحسن معاملة الرقيق، كما يعطي لهم الكثير من الفرص للتحرر.

(٧) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي (النجف، ١٩٦٤)، ج، ص ٧ ـ ١٦٨ حيث يذكر أن زغاوة هم سكان وحكام كانم.

(٨) أبو العباس الشماخي، السير، كما جاء في كتاب: T. Lewi Cki, Arabic external sources for the history of Africa to the South of Sahara (Wro Claw, 1969), p. 9.

(٩) من العناصر البشرية التي قدمت إلى مناطق كانم الفلانيين والصو الذين يحتمل ان يكونوا من أصل نيلوتي (من حوض النيل) والكانمبو وهم خليط من الصو والبربر، والكانوري وهم خليط من العرب والزنوج والبربر، يضاف إلى ذلك الجماعات العربية.

(١٠) للتفاصيل أنظر: أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، كتاب الائمة وأخبارهم، تحقيق وتعليق: إسماعيل العربي (الجزائر، ١٩٧٩)، ص ٤ ـ ٤٦.

(١١) عن اسباب قدوم العرب الهلالية وانتشارهم في بلاد المغرب والصحراء لاحظ الفصل الثالث في اطروحة الباحثة غير المنشورة بعنوان:
Arab Military and commercial penetration in the Maghrib and its Sahara... (Manchester University, 1981).
انظر ايضا: د. راضي غفوس، العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم.

(١٢) انظر مخطوط: «قصة الماى دونمة أبي زوجة أمير بلاله».
Palmer, op. cit, Vol. 11, pp. 3-42

(١٣) جعّل ابن خلدون الزغاوة من الطوارق الملثمين سكان الصحراء (تاريخ ج ٦، ص ١٦٨). ويبدو انهم جمعوا بين الصفات الزنجية والحامية.

(١٤) أنظر: De. Lange, Proges de L'Islam et Changement Politique au Icanem Journal of African History, XIX, **4 (1977), p. 501.**
ويرجع Lange عدم تدوين أحداث القرن ٥ هـ / ١١م في الديوان إلى تحزب كتابه إلى الأسرة الحاكمة السيفية التي لم تسمح لهم بتسجيل أحداث سابقة على أكثر احتمال.

(١٥) العمري، المسالك والممالك، نقلا عن طرخان، امبراطورية البرنو، ص ٧٥
انظر ايضا: Trimingham, op. cit, p1 cit, p. 115.
هناك مخطوطة عربية ترجع كتابتها إلى القرن ١٧م عثر عليها الفرنسي دوميزيير في تمبكتو تقول: ان أربعة جنود من جيش عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي جاءوا من اليمن إلى مناطق السودان الأوسط وأسسوا أسرة مالكة في المنطقة طرخان، المسالك والممالك، ص ٦٦، ومن المحتمل أن هؤلاء قد اختلطوا بسكان المنطقة وتوسع نفوذهم فيها.

(١٦) عن آثار الهجرة الهلالية المختلفة انظر:

M. Brett,'' Ifriqiya as Amarlect for Saharan trade from the tenth to twelfthe Cebtyrty, Journal of African History, Vol. X. (1969), pp. 347-64).

المراجع العربية

إبن حوقل، أبو القاسم، **صورة الأرض**، بيروت : ١٩٣٨ .

إبن خلدون، عبد الرحمن، **تاريخ العبر**، بيروت : ١٩٥٩ .

إبن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى، **كتاب الجغرافية**، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت: ١٩٧٠

إبن الصغير، المالكي، **ذكر بعض الأخبار في الائمة الرستميين**، نشر وتحقيق De Motylineki , Actes de Xve Congress internatiopnal Des Orientalists CALGer, 1905

إبن عبد الحكم ، **فتوح مصر والمغرب**، ليدن : ١٩٢٠

إبن عذارى، المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، بيروت : ١٩٦٧ .

إبن يونس، إبراهيم صالح، **تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم ـ برنو**، الخرطوم: ١٩٧٠ .

أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر، **كتاب سير الأئمة وأخبارهم**، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، الجزائر، ١٩٧٩ .

البكري، أبو عبيد، **ـ المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب**، الجزائر : ١٩٥٦
ـ المسالك والممالك

الإدريسي، الشريف، **ـ وصف افريقيا الشمالية والصحراوية**، نشره هنري بيريس، الجزائر : ١٩٥٧ .
ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

الاصطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد، **المسالك والممالك**، القاهرة : ١٩٦١ .

حركات، إبراهيم، «دور **الصحراء** الافريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط» **مجلة البحوث التاريخية**، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، السنة الثالثة، العدد الأول، يناير، ١٩٨١ .

الحرير، إدريس الصالح، «العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء الكبرى، وأثرها في نشر الإسلام» . **مجلة** البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين ، السنة الخامسة، العدد الاول (يناير ، ١٩٨٣)

الحموي ، ياقوت، **معجم البلدان**، بيروت: ١٩٥٧ .

دغفوس، راضي، «العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم من مصر» **المؤرخ العربي**، العدد ٢٠، ١٩٨١ .

طرخان، إبراهيم	**امبراطورية البرنو الإسلامية**، القاهرة: ١٩٧٥.
القلقشندي، أحمد بن علي	**صبح الأعشى في الانشا**، القاهرة: بدون تاريخ
محمود، حسن أحمد	**انتشار الإسلام والثقافة العربية في افريقيا** القاهرة: ١٩٥٧.
موسى، عز الدين	**النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، القاهرة: ١٩٨٣.
مؤلف مجهول	**الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشره سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية: ١٩٥٨.
مؤنس، حسين	«فزان ودورها في انتشار الإسلام في افريقيا» **مجلة كلية الآداب**، الجامعة الليبية، العدد الثالث، ١٩٦٩.
اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح	ـ **تاريخ اليعقوبي**، النجف: ١٩٦٤ ـ **كتاب البلدان**، ليدن: ١٨٩١

المراجع الأجنبية

Brett, M.	«Ifiqiya as a market for Saharan from the tenth to twelfth century», **Journal of African History**, Vol. X 1969.
Hopkins, J. E. P.	**Medieval Muslim Government in Barbary**, London, 1958.
Lange, D.	«Proges de Le'Islam et changement politique an Icanem.» **Journal of African History**, Vol. XIX 1977.
Law, R. C. C.	«The Garamantes and trans Saharan enterprise in classical time». **Journal of African History**, Vol. VIII 1967.
Lewiciki, T.	**Arabic external sources for the history of Africa to the South of Sahara**, Wroclaw: 1969.
Martin, B. G.	«Kanem, Bornu and Fezzan: Notes on the political History of trade route», **Journal of African History**, Vol. X 1969.
Palmer, H. R. Bornn	— **Sahara and Sudan**, London, 1936. — **Sudanes Memoirs**, London, 1907.
Trimingham, J. S.	**A History of West Africa**, London, 1963